

## نجيب نصّار شيخ الصحافة العربيّة في فلسطين

الدكتور قسطندي شوملي<sup>٥</sup>

عصره

عاش الشيخ نجيب نصّار (١٨٧٣-١٩٤٨) في حقبة تعتبر من أبرز حقبات تاريخنا الحديث وأهمّها. فلقد كان النصف الأوّل من هذا القرن غنيًا بالأحداث السياسيّة والفكرية والاجتماعية، إذ تميّز من الناحية السياسيّة بالتململ العربيّ ضدّ السلطة العثمانيّة ممّا أدى في النهاية إلى ولادة الثورة العربيّة الكبرى، وصارت المطامع الاستعماريّة تظهر جلية للعرب، وبدأت المطامع الصهيونيّة بإقامة وطن قوميّ لليهود على أرض فلسطين، إضافة إلى الحرب العالميّة الأولى وما جرّت من ويلات ونكبات. أمّا من الناحية الفكرية فقد تميّزت بداية هذا القرن باليقظة العربيّة، وتجلّى ذلك بإقامة الجمعيات وانشار الصحف والمجلاّت وكثرة الاجتهادات السياسيّة القوميّة، والنهضة الثقافيّة، والتأثر بالغرب والانفتاح عليه وعلى حضارته وفكره. ولأنّ الأدب كائنٌ حيّ يتأثر بما حوله، فكان من الطبيعيّ أن تنعكس هذه الأمور مجتمعة فيه، على اختلاف ألوانه وأجناسه، وكان من الطبيعيّ أيضًا أن تنهض فيه ألوان جديدة هي وليدة هذه الظروف. أمّا من الناحية الاجتماعيّة فعمّ البؤس وخيم الفقر على

(٥) أستاذ في جامعة بيت لحم.

السواد الأعظم نتيجة للسياسة العثمانية، خاصة أيام الحرب الأولى،  
واستيع ذلك هبوط في الأخلاق والعلاقات والقيم.

### نشأته وثقافته

كان نجيب نصار الملقب بشيخ الصحافة الفلسطينية، من طلائع الصحفيين والكتاب والمبدعين في النصف الأول من هذا القرن، وتميزت شخصيته بانفتاح الذهن وسعة الأفق والاطلاع على الآداب العربية والعالمية، وكان مرتبطًا بمجمل الأحداث السياسية أشد الارتباط، تنقل في الوطن العربي راجيًا وراء قضية حرية الأمة العربية جمعاء واستقلالها. وتقلب في أعمال مختلفة ونشاطات سياسية ووطنية لا حصر لها، قبل أن يستقر مُنشئًا صحيفة الكرمل ومطبعتها، والتي أعطاها ريع قرن من حياته. وقد ولد نجيب نصار في قرية عين عنوب في لبنان عام ١٨٧٣، ودرس الابتدائية في الشوفيات، وأتم تعليمه الثانوي في سوق الغرب، والتحق بالجامعة الأمريكية في بيروت حيث درس الصيدلة والعلوم السياسية. وعمل في الصيدلة في مدينة طبريا في المستشفى الأستكتندي، ثم انتقل إلى سلك التعليم في القدس وعلم في مدارسها المختلفة، وغادرها بعدئذ إلى حيفا لاحقًا يباخوته إبراهيم نصار صاحب فندق نصار، والدكتور أسير نصار ورشيد نصار صاحب صيدلية نصار في حيفا أيضًا. وسكن في مدينة حيفا حتى سنة ١٩٤٤، انتقل بعدها إلى بيته في بيسان، وهناك أصيب بمرض رئوي حاد ونقل إلى المستشفى الإنجليزي في الناصرة، وتوفي في اليوم الثالث من آذار سنة ١٩٤٨ ودفن في مقبرة الروم الأرثوذكس في الناصرة.

كان نجيب نصار قصير القامة يميل إلى البدانة، ولبس طربوشًا مائلًا إلى الأمام على طراز طرايش تجار بيروت. وكان موظفو الحكومة والبلدية يكلون إليه قضاياهم، واشتغل بالأراضي وكان قريبًا من الفلاحين. وكان قد يس من العيش في ظل الحكم التركي، فقرّر الهجرة إلى بلاد أخرى. ولكن لما أعلن الدستور عام ١٩٠٨، قرّر البقاء في البلاد، وأسس صحيفة الكرمل

وكرّسها لمهاجمة الاستيطان. ويصف الباحث عمر الصالح البرغوثي في صحيفة مرآة الشرق<sup>(١)</sup> نجيب نصار فيقول:

«... ربي في حضان أبيه، فلقنه الرجولة، ودرّبه على الفتوة، وبعث به إلى المدرسة في القدس، فأخذ شهادتها وتعيّن معلّمًا في إحدى مدارسها، ثم شرحت نفسه إلى ما أبعد مدى من التعليم، فصار ترجمانًا للسيّاح، فوجد في هذه الصنعة الجديدة لذة في العمل وسعة في المكان، فاسترسل لها، ثم هجرها وعكف على معابطة الزراعة، واختلط بقبائل البدو الرحالة وأبناء القرى والبرادي فارتاح لتلك المعيشة، فكان يقري ويقري، ويضيف ويضاف. وكان عنده من الحرّاثين والمزارعين والقطّارين عند رافر. وكان يجمع ويوزّع ويجود ويريح كأنه منهم، فاقتبس لهجتهم الكلامية، واتنى بعض الجياد العربية وتأنق في سروجها، وعاشر الطبقات المختلفة وتغلغل في معرفة أخلاق الفلاح حتى وصل إلى ذريرات دماغه وتقاليده. تعاطى المحاماة فرافع ودافع ونصر الحقّ ونكس أعلام الباطل.. كان محاميًا ثم انصرف من المحاماة إلى الحرف الحرّة أيضًا. خاض خضمّ الصحافة وشرع في تأسيس جريدة الكرمل، فصادف إقبالًا من الناس وانتشرت جريدته بسرعة وهي التي نبّهت الناس إلى الأخطار الصهيونية، وكيف كان الصهيونيون ينمزون اقتطاع فلسطين عن البلاد العربية لتأسيس حكومة يهودية فيها... إنّ أكثر تجار الوطنية اليوم كانوا يهزأون منه آنذاك. تقلّب طوال حياته في أحضان المهن الحرّة، وكان إذا لم يصادفه التوفيق في ناحية هجرها إلى أخرى، حتى استقرّ في مهنة الصحافة الشريفة. فهو لم يمش اتكاليًا ولم يتربّب على «طلامي» دير الروم، ولم يبيت في محيط ساقل فعاش موفور الكرامة... إنهم زمن الحرب بأنّه عربيّ فاختنى، ترجم كرّاسه في الصهيونية، أوّل من ثبّه على غرس الأشجار، لغته ركيكة فهي لا تزال منذ صدور أوّل عدد الكرمل إلى يومنا هذا في مستوى واحد».

(١) جريدة مرآة الشرق، ٢٢ أيلول ١٩٢٧، العدد ٥٢٥.

وهكذا نرى أن نجيب نصار كان واسع الاطلاع والثقافة ومن مرگبات شخصيته ارتباطه بالأرض والناس، والتنقل في القرى والمدن والعشائر البدوية ومشاركتهم حياتهم وهمومهم وقضاياهم القومية والوطنية. كما وقف في وجه السلطة العثمانية، الأمر الذي ميّز طلائع الحركة الوطنية الحقيقية في تلك المرحلة الحساسة، إضافة إلى وقفته في وجه المطامع الصهيونية بـفلسطين. ولقد صدق نجيب نصار في كل تحذيراته وكذب كل أولئك الذين قنعوا الاستعمار البريطاني بقناع صديقتنا بريطانيا.

لقد عاش نجيب نصار وأصدر جريدته الكرمل في الفترة نفسها التي عاش فيها عيسى العيسى الذي أصدر جريدة فلسطين، والتي تعتبر بحق أم الجرائد الفلسطينية. وإذا أراد الباحث أن يذكر أهم صحف فلسطين في مطلع هذا القرن، فإنه يذكر صحيفة فلسطين في يافا، وجريدة الكرمل في حيفا، وجريدة مرآة الشرق التي كانت تصدر في القدس. ويقارن عجاج نويبيض بين صاحب الكرمل نجيب نصار وصاحب فلسطين عيسى العيسى فيقول:

بين الرجلين، عيسى العيسى ونجيب نصار نقاط تشابه ثم نقاط لا تشابه. أما التشابه فهي أن كلا منهما الفارس المعلم في مبارزة الصهيونية من قبل إعلان الدستور العثماني، ثم بعد ذلك اضطرادا إلى آخر الشوط. هذا في حيفا وذاك في يافا من ثغور فلسطين. كلاهما تعرض للثقتين، نعمة اليهود ونعمة الأتراك، في سبيل فلسطين الحبيبة. أما نقاط الاختلاف فهي أن نجيب نصار - وهو لبناني الأصل - كان يرى أنه يجب أن يكون من الممكن استمالة الإنكليز إلى وجهة النظر العربية في فلسطين، وعيسى العيسى كان على غير هذا الرأي. وفي حين كان عيسى العيسى شاعرا، إلى جانب أنه الصحفي، كان نصار لا يعنى بغير النهضة الصحفية المجردة، فلم ير نفسه أنه قد خلق لشعر أو أدب، بل لمقارعة اليهود. ثم إن نصار مات ولم يشهد النكبة إذ كانت وفاته في الناصرة أواخر ١٩٤٧، في حين أن عيسى العيسى شهد النكبة كلها... وشرب كأسها حتى

الثمالة. وعيسى العيسى نفي إلى الأناضول خلال الحرب الأولى، أما نصار فإنه قد توارى عن الترك في الغور مدة ستين، ثم لما سُم حياة التواري في الأغوار والبراري، وكان مطلوبًا من السلطة العسكرية التركية، اتّصل بأصدقائه الخُلص وعلى أيديهم سلّم نفسه، فسجن في دمشق حتى انتهت الحرب ووقع الاحتلال. ثم عاد إلى حيفا واستأنف إصدار الكرمل مرّة في الأسبوع، على غرار عيسى بإصداره فلسطين في يافا مرّة في الأسبوع. ولنجيب نصار عدّة مؤلفات في الصهيونيّة وكتاب في الزراعة الجاقّة ورواية مفلح الفسّانيّ حكى فيها قصّة شدائده لما كان في الغور وقت الحرب. هو صخرة صمّاء من صخرات العرب في وجه الصهيونيّة على الأقل ٥٥ سنة، وكذلك عيسى العيسى. فإذا ما ذكرت صخيفتان ناقمتا اليهود مناقمة مرّة أمداً طويلاً، كانت الكرمل وفلسطين في الطليعة»<sup>(٢)</sup>.

## آثاره وأدبه

ألّف نجيب نصار عدّة كتب باللغة العربيّة منها: مجموعة من الروايات وهي رواية مفلح الفسّانيّ ورواية في ذمّة العرب (١٩٢٠) ورواية شمم العرب ورواية الأميرة الحساء، ومنها كتب مثل: الرجل وهو يدور حول حياة الملك عبد العزيز آل سعود، والزراعة الجاقّة (١٩٢٧) وهو ترجمة لكتاب العالم الزراعيّ الكبير جون ودنو رئيس كليّة أتوا الزراعيّة، والقضيّة الفلسطينيّة والصهيونيّة، فقد قام بترجمة مادّة الصهيونيّة من دائرة المعارف اليهوديّة. ونشر في العام ١٩٢٠ سلسلة مقابلات مهمّة تحت عنوان الصهيونيّة، تاريخها وغرضها وأهمّيّتها ونشر هذه المقالات في ما بعد كتاباً مستقلاً على حسابه. استيقظت روحه الوطنيّة المرهفة على الأخطار المحدقة بفلسطين، وراح يؤكّد أنّ المعركة هي معركة على أرض الوطن، وقام بحملة إعلاميّة فكريّة مهمّة إذ نشر المقالات في المقلم

(٢) عجاج نويهض: رجال من فلسطين، بيروت، منشورات فلسطين المحتلّة، ١٩٨١، ص ٣٠.

المصريّة ولسان الحال اللبانيّة، داعياً العرب إلى اليقظة، مؤكّداً أنّ الخطر الذي يهدّد فلسطين يهدّد العرب قاطبة أرضاً وكياناً ومستقبلاً.

وتظهر آراء نجيب نصار من خلال روايتين خلّفهما لنا إبان الحرب العالميّة الأولى وبعدها، هما: مفلح الفسّانيّ وفي ذمّة العرب. وكانت القصة فنّاً جديداً. في فلسطين، ولم يُظهر كتاب القصة في تلك المرحلة المبكرة عناية كافية بشكلها الفنّي، وذلك لقلّة الموروث القصصيّ، ولكون القصة في تلك الفترة تهدف إلى التسلية والترفيه أو التعليم والبوعظ والثقيف. ولقد دفع نجيب نصار إلى كتابة القصة ثلاثة أمور: شيوع القصة الترفيهيّة التعليميّة المسلّية في مصر وغيرها من البلاد العربيّة، ولفت نظر قراء صحيفة الكرمل إلى الموضوعات السياسيّة التي كان يكتبها بجرأة كبيرة مدافعاً بها عن الوطن، إضافة إلى التصريح بما لم يكن يستطيع التصريح به في مقالاته السياسيّة الصحفيّة. وتشهد روايتا مفلح الفسّانيّ وفي ذمّة العرب على نبرغ نجيب نصار فكريّاً وأديباً. وكان في روايته الأولى قد وقف موقفاً توفيقياً خاطئاً، فكسب الثانية ليصرّح بقوميّته وشجاعة أبناء دينه.

«تستحضر الرواية الأولى مفلح الفسّانيّ فترة الحرب العالميّة الأولى، وتجري في أماكن عديدة جدّاً. وتبدأ بالطريقة التقليديّة وهي أن يأتي الرسول لينذر. ويظهر هنا مفلح في بداية الرواية رجلاً مثقفاً ومنكراً مجرباً ومحباً لوطنه وشعبه. ويدعو إلى تكاتف العثمانيّين والعرب لردع الخطر الداهم، ورغم ذلك يُلاحق وتعرّض حياته للخطر فيضطرّ إلى الاختباء، ويختار الناصرة وبيت كامل فعوار بالذات. وهنا تبدأ الأحداث بالتوالي سريعاً، وتعرّف إلى عدد كبير من الشخصيات الفاعلة الحقيقيّة على الساحة العربيّة والعثمانيّة عامّة، وعلى الساحة النضاليّة خاصّة. وفي غمرة هذه الأحداث المثقلة بالشخصيات، تقف على آراء مفلح العامّة وذلك من خلال تصريحات شخصيّة أو من خلال تصريحات الشخصيات الأخرى. والرواية لا يجمع بين أجزائها حدث محوريّ واحد، بل تحوّر على مجموعة من الأحداث المتلاحقة لا يجمع بينها سوى شخصيّة البطل

مفلح. وهي تظهره رجلاً عبقرئاً إيديولوجئياً، يفهم السياسة جيداً بكلّ أبعادها وملاساتها، ويجاهر بأرائه بجرأة نادرة. والرواية الثانية في ذمّة العرب تشبه الروايات التاريخيّة. ولقد كتبها نصّار بعد الحرب الأولى، مع أنّه ذكرها في رواية مفلح الفسّانيّ خلال إقامته في الناصرة. والرواية تركّز على حادثة تاريخيّة مشهورة هي موقعة «ذي قار» في القرن السابع، فيوظّفها الكاتب لخدمة هدف قوميّ. وهو يؤكّد في هذه الرواية دور العرب المسيحيّين في بئّ الروح القوميّة، وفي زرع ذكر العرب وفي إخلاصهم لعروبتهم. ويقتطع الكاتب هذه الحادثة التاريخيّة ليشيد عليها رسالة تعليميّة وعظيمة تقول: «أيها العرب اتحدوا كما فعلتم يوم ذي قار، عندئذ تفرضون هيتكم». وللرواية أبعاد فلسفيّة تدور على العدل والمساواة والتضامن والقوّة والمحبة والإيثار والتواضع<sup>(٣)</sup>.

«واشتهر نجيب نصّار بجديّة أبحاثه وعمقها وصلب مبادئه ومواقفه السياسيّة الواضحة، وكان أوّل من أقام نقابة للأدباء، وقد تألّفت في حيفا بمقتضى نظام جمعيّة النهضة الاقتصاديّة العربيّة المعترف بها من الحكومة باسم «حلقة الأدب». وحلقة الأدب هذه غايتها مناصرة الأدب ونشر الآداب بكلّ طريقة ممكنة، ومحاوية الفساد وسوء الأخلاق. كما كانت تهدف إلى أن تسدّ فراغاً كبيراً في أجزاء مدينة حيفا الأدبيّة وتنشئ رابطة بين الأدباء، وأن تشجّع الخطابة وتدرّب لحيفا خطباء تكوّن فيهم الكفاءة، وأن تنظر في نقائص مجتمعنا الأدبيّة، وتعمل على التّشبه إليها والحيّض على استبدالها بواسطة خطب عموميّة أو مقالات تدرج في الصحف السيّارة، وأن تنظر في التعليم اليتي والمدريّ وتنبّه إلى القصور فيه، وأن تهتمّ بنشر الكتب الأدبيّة وترريجها، وأن تقف على أخبار كلّ أديب يمرّ بحيفا أعريّاً كان أم أجنبيّاً وتسمي للانتفاع بعلمه وأدبه، وأن تنظر في أمر حياة الشّية فتكتب المقالات عنها، وأن تشرف على ما تشره الجرائد والمجلّات حيناً بعد حين في نشر مقالات تحضّ على إجلال مكان القلم

(٣) حبيب بولس: مع نجيب نصّار في روايته مفلح الفسّانيّ وفي ذمّة العرب، ندوة، الناصرة، ٢٣-٣-١٩٩٠.

وصيانة منزلة الأدب كلِّما رأَت اقتضاء ذلك»<sup>(٤)</sup>.

وكتب نصّار مجموعة من الرسائل تحمل عنوان رسائل صاحب الكرمل نشرها وليد خليف في كتاب العام ١٩٢٢<sup>(٥)</sup>. ورسائله هذه هي أقرب إلى أدب الرحلات عند العرب منه إلى أيّ نوع أدبيّ آخر، وفيها يبدي الكاتب رأيه في عدد من الأمور والقضايا التي رآها وفحصها بدقّة، وذلك من خلال تجواله في أنحاء فلسطين وشرقيّ الأردنّ بين السنوات ١٩٢٢ و١٩٢٥، ولقد نشر الكتاب تبعاً في جريدته بين هاتين السنتين. وهي نتاج رحلة ميدانيّة قام بها في أرجاء فلسطين والأردنّ، ومَن تصفّح هذه الرسائل وجد أنّها ذات شريط أنطولوجيّ واسع يشمل جوانب عديدة متّزعة من حياتنا في تلك المرحلة. كما تكوّن مرجعاً للعديد من الدارسين على تنوّع اهتماماتهم واختلاف تخصصاتهم. كما يجد فيها القارئ العديد من الفوائد والإشارات إلى قضايا وموضوعات، لم يلتفت إليها الكثير ممّن أرخوا لفلسطين بين الحربين. وتزوّل هذه الرسائل مرجعاً حيّاً صادقاً لحقبة تاريخيّة مهمّة من حياة فلسطين ما زالت تحتاج إلى الدراسة والبحث، وكان القصد من هذه الحولات في المدن والقرى تدوين المشاهدات والملاحظات لتصبح وثيقة مهمّة لمن يريد أن يتعرّف إلى البلاد وأجوائها ومشاكلها في ذلك الحين. كما كان القصد أساساً التوعية من الخطر الصهيونيّ والمطامع الأجنبيّة. وفي ما يلي نموذج من هذه الرسائل: يقول تحت عنوان الحقيقة الجارحة:

«من أشدّ الأمور إيلاّماً أن يضطرّ الإنسان إلى التصريح بحقائق جارحة خدمة للمصلحة والتاريخ والحقيقة التي تحاشينا التصريح بها في ما مضى، ونضطرّ إلى المجاهرة بها اليوم، وهي أنّنا في جهادنا مدّة سبع عشرة سنة وجدنا أنّ معظم الحركات الوطنيّة التي حاولنا أن نقوم بها مع الوجهاء والمترعّمين في المدن، كانت تفشل، وأنّ المتعلّمين إلى الآن لم يتخذوا لهم موقفاً صريحاً، بل تراهم دوماً يتردّدون أو بعبارة أخرى

(٤) جريدة الكرمل، ٢٧ أيلول ١٩٢٢.

(٥) وليد خليف: رسائل صاحب الكرمل، اناصرة، ١٩٩٢.

يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، ولم يقوموا بعد بأعمال تستجلب الأبصار أو تنعش الآمال ليثق الشعب بهم. ولذلك قررنا لما صحمنا على القيام بهذه الرحلة، أن نזור بعض القرى في كل قضاء لتعرف إلى القرويين وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية، ونقف على نفسياتهم ونرشدهم إلى ما نعتقد صالحاً لهم، ونسترحي منهم المادة الضرورية لعملنا الصحافي ولنعلم إذا كان يمكن أن نعمل وإياهم»<sup>(٦)</sup>.

لهذا وإن قيمة هذه الرسائل لا تكمن في كونها تشمل قطاعات واسعة من حياة الشعب الفلسطيني، بل إنها تكمن في طريقة العرض والوصف والمعالجة. ينطرق نجيب نضار إلى عدد من العادات والتقاليد الشعبية والدينية التي كانت شائعة في فلسطين آنذاك، كما إنه يصف حياة البدو بحلوها ومرها وحياة الفلاحين بحسناتها وسيئاتها، وكذلك يذكر أسماء عدد من الرياديين في حياتنا في عدد من المجالات العلمية والعملية، هذا فضلاً عن وصفه الأسواق والمتاجر ودعوته إلى الرحلة والتكاتف والناصح. ويجد القارئ في الرسائل شرحاً وافياً للحالة الاقتصادية التي كانت في فلسطين والوضع المادي المتردي وأسبابه وطرق العلاج والحل، كما يقف على حالة المواصلات العامة والطرق والجمعيات الاقتصادية وحالة الزراعة وطرقها وأنواعها، وكذلك التجارة وأساليبها وما يتعلق بها. وكما تكون الصورة واضحة يعقد الكاتب مقارنات كثيرة مع حالة المستوطنات اليهودية الجديدة التي أقيمت حديثاً على أرض عربية. ونجد في الرسائل وصفاً لحالة المدارس وأوضاعها ونواقصها، وشرحاً عن التعليم وأساليبه وأنواعه وطرقه وعن المدرسين الوطنيين وعن عدد الطلاب والطالبات والموضوعات التدريسية وعن اهتمام السلطة بذلك. كما أن الكاتب يذكر مفضلاً الحالة الثقافية العامة سواء أفي ذكره المسارح والتمثيل كان ذلك أم في ذكره المكتبات وما شابه. كما نجد وصفاً للحالة الصحية في حينه كالنظافة والصحة العامة

(٦) وليد خليف: رسائل صاحب الكرم، ص ١١٧-١١٨.

والعيادات والمستشفيات والأطباء. وتحتوي الرسائل على معلومات وفيرة عن المواقع الفلسطينية، حيث إن الكاتب يذكر الأحداث التي مرّت عليها عبر التاريخ. كما نجد ذكر عدد كبير من القرى وعائلات ورجالها وأهميّة مواقعها. وتحفل الرسائل أيضًا بالنقد والاحتجاج والإشادة، إلى مواقف وطنية متعدّدة فيها الكثير من نقد السلطة ورجال الشرطة وبائعي الأرض والخونة والعلماء الذين باعوا ضمائرهم من أجل المال، كما فيها حتّ لأصحاب الضمائر الحيّة كي يتغيظوا من آفة الخمول لياشروا مهماتهم الوطنية عليهم يتقدون بذلك البقيّة. ومن اللافت للنظر أنّ نجيب نصّار بنى رسائله بناء جيّدًا، فهو يتناول كلّ مدينة أو قرية زارها على حدة، يشرح في البداية الوضع السائد وقد يقدّم نبذة تاريخيّة ثمّ ينتقل لذكر الإيجابيات ويشدّد عليها ثمّ السليّات وينفر منها، ثمّ يأتي بالحلّ. هكذا كتب عن عكا وعن يّسان والناصرة ونابلس وسائر المدن في فلسطين<sup>(٧)</sup>.

«ولقد التقى نجيب نصّار خلال هذه المسيرة الميدانيّة في أرجاء فلسطين وشرق الأردنّ، شاعر الأردنّ مصطفى وهبي التلّ الملقّب بـ«عرار»، ووجد لديه ميولًا تشبه ميوله، ولمس الشاعر «عرار» في جريدة الكرمل جرأة في الدفاع عن الحقّ وصراحة في تحذير العرب من الصهيونيّة البغيضة والطائفيّة المقيّة. وقام «عرار» ونصّار بالتبشير بالقوميّة العربيّة والتحذير من قوى الاستعمار، ولقد زارا الناصرة العام ١٩٢٢ لهذا الغرض ونصحا نشات فيها أن تترك سياسة الإتجار بالدين. وكان نصّار قد أسّس في العام ١٩١٨ الحزب العربيّ في مدينة الناصرة، ولما ذهب إلى مدينة نابلس من أجل تأسيس فرع لحزبه، تصدّى له الحاكم البريطانيّ وأرغمه على العودة إلى الناصرة مشيًا على قدميه. وفي العام ١٩٢٤ ذهب نجيب نصّار مع «عرار» إلى مدينة الكرك في شرق الأردنّ وشرعا في الدعوة إلى القوميّة العربيّة ومناجزة الاستعمار<sup>(٨)</sup>.

(٧) حبيب بولس: رسائل صاحب الكرمل، ندوة، الناصرة، ٢ نيسان ١٩٩٢.

(٨) يعتبر المراد: من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، القدس، دار الإسماعيل،

١٩٩٢، ص ٦٣٢-٦٣٥.

وَلِدْعَم نَصَار القول بالعمل وَلِسْجَل على القُرطاس صرخته المدوّية، أسّس جريدته الكرمل العام ١٩٠٨، وكانت هذه الجريدة هي مشروع حياة نجيب نصار بلا شك. بثّ فيها مبادئه وآراءه السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة الثيرة، وكان لها ملفّ خاصّ في وثائق الحركة الصهيونيّة كما كان ملفّ خاصّ لنجيب نصار نفسه. وصحيفة الكرمل هي من أقدم الصحف الفلسطينيّة، يُصدر العدد الأوّل منها بتاريخ ٢٧-١-١٩٠٨. وكانت تصدر مرّة واحدة في الأسبوع حتّى العدد ٧٥ الذي صدر بتاريخ ٦ آب ١٩١٠، إذ أصبحت تصدر مرّتين في الأسبوع يومي الثلاثاء والجمعة. وكانت تصدر بمقياس ٢٧ ب ٢٦ سم واعتبارًا من العدد ٤٢ أصبحت تصدر بمقياس ٤١ سم ب ٢٧ سم. ويقول جميل البحري في كتابه تاريخ حيفا الصادر سنة ١٩٢٢: الكرمل جريدة عربيّة تصدر مؤقتًا مرّتين في الأسبوع لصاحبها السيّد نجيب نصار واشتراكيًا في فلسطين ١٢٥ قرشًا مصريًا و١٥٠ في الخارج». وحاول أوّلًا التوفيق بين العرب والترك تفاديًا للفتنات التي تهدف الصهيونيّة العالميّة والدول العربيّة إلى إحدائها في هيكل الرجل المريض، واجهازًا على الإغراءات الصهيونيّة للمسؤولين الأتراك بملايين الدنانير وعشرات الحنات وإقناعهم بمحاسن قيام «دولة إسرائيل» في قلب فلسطين قلب العالم العربي، إذ إنّ في قيامها مزايا للأتراك لا يحصرها عدّ، كخطر العالم العربيّ وتفتيت وحدته، وفصل فلسطين عن مصر وسورية ولبنان والعراق وسائر البلاد العربيّة، والحيلولة دون اتّصال العرب بعضهم ببعض جويًا وبيّريًا وبحريًا. «فكان في كلّ عدد من أعداد الكرمل بيّنة إلى الخطر الصهيونيّ، ولكنّ صحبته لاقت السخريّة والاستهزاء. ومن فرط سذاجة عرب ذلك العهد لُقّب الكثيرون نصارًا بمجنون الصهيونيّة»<sup>(٩)</sup>. وكانت هذه الجريدة انتفاضة ثقافيّة سياسيّة أفضّت مضجع الحاكم التركي، وواصلت

(٩) بمقرب العرودات: من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، ص ٦٢٢.

الصدور حتى الحرب العالمية الأولى، إذ اضطرّ نصّار إلى التنكّر والهرب من بطش الحاكم التركيّ الجلّاد جمال باشا. فقد دعا نصّار إلى ثورة عربيّة توحدّ الهلال والصليب لإقامة دولة عربيّة قوميّة حديثة. ولقد اكتسبت الجريدة شعبيّتها في صراحة موقفها ووضوح توجّوها ولم تعرّض أبدًا - - - - - للأموال الفرديّة والشخصيّة ولم تفتح الباب للمهاترات الكلاميّة.

ومنذ صدور الكرمل في ٢٧-١٢-١٩٠٨ وحتى صدور العدد الأخير يوم ٢-٨-١٩٤١ في عددها رقم ٣٤٢١ مع إسقاط خمسة أعوام احتجبت فيها لنشوب الحرب العالميّة الأولى، لا نجد فرقًا واحدًا لجهة الطباعة والتبويب والتحرير والأغلاط المطبعيّة واللغويّة الكثيرة. فلم تجذب صورة الصحيفة الخارجيّة القراء، والورق الذي طبعت عليه مدّة ثلاثين سنة يكاد يكون من النوع نفسه، وكذلك الأحرف لم تتغيّر، وهي في ذلك لم تستطع أن تباري صحيفة جذّابة كصحيفة فلسطين، إضافة إلى أنّ أسلوب نصّار كان ركيكًا وغير مصقول<sup>(١٠)</sup>. كما أنّ نجيب نصّار نفسه يعترف بهذه الهفوات. «كانت مطبعته تتألّف من غرفتين صغيرتين وعدّة جوارير للحروف ويشغل فيها عاملان. لم يكن لها مراسلون يعملون فيها وكانت معظم الكتابات فيها من إعداد رئيس التحرير أو الهواة أو الأصدقاء. وكان هو نفسه الذي يحزّر الجريدة ويتضدّ حروفها ويعمل على توزيع نسخها وكتابة عناوين مشتركها، وكانت الكرمل شبيهة بالصحف الأخرى التي عايشتها في القدس، بلا تبويب ولا هيئة تحرير ولا مراسلون يعملون فيها، وإن كان هناك مخبرون متطوّعون كثر في مختلف المناطق الفلسطينيّة. ويظهر أنّ نفوذ الجريدة أخذ في الهبوط من سنة ١٩٢٩، فانقلبت إلى جريدة ممّلة، ولم يستطع صاحبها أن ينافس الجرائد العربيّة الحديثة التي أخذت تتطوّر وتحسّن في عهد الانتداب البريطانيّ وتظهر بحلّة جديدة غير الحلّة العثمانيّة القديمة»<sup>(١١)</sup>. وعند نشوب الحرب

(١٠) بمقرب يهوشع: تاريخ الصحافة العربيّة الفلسطينيّة، حيفا، شركة الأبحاث العلميّة، ١٩٨١ ص ٤٣٧.

(١١) المرجع نفسه، ص ٤٣٧.

العالمية الثانية، خارت قوّة صاحبها وتوقّفت عن الصدور نهائيًا. وصدرت  
الجريدة في ٢ آذار ١٩٤٠ في السنة الثانية والثلاثين بصورة أسبوعية وبدأت  
تصدر مؤقتًا صباح كلّ يوم سبت ب ١٢ و ١٦ صفحة وبدل اشتراكها جنيه  
فلسطيني في السنة، وقد سمّاها نجيب نصّار بـ الكرمّل الجديد، ولقد شعر  
صاحبها بأنّها تلفظ أنفاسها الأخيرة فنشر مقالة يوم السبت ١٧ آب ١٩٤٠ -  
اعتبرها وصيته الأخيرة.

وكانت الكرمّل فتحًا رياديًا في مجال الصحافة السياسيّة والاجتماعيّة  
والاقتصاديّة والأدبيّة، كذلك كانت مجلّة النقائس المصريّة لخليل بيدس.  
وفي العشرينات كانت الصحف قد صدرت من قبل المتنوّرين والمعلّمين  
الأدباء والذين أرادوا أن تكون هذه الصحف أدوات نهضة شاملة للأمة.  
كما صدرت الصحف التي عبّرت عن تيّارين أساسيين في الحركة القوميّة:  
المجلسيين برئاسة الحاج أمين الحسيني والمعارضين بزعامه راغب  
النشاشيبي. كما صدرت الصحف التي عبّرت عن التيار اليساريّ  
الاشتراكيّ الوطنيّ أو التي كانت موالية السلطة. ولقد تقلّبت سياسة جريدة  
الكرمّل خلال صدورها، فبعد أن هادنت سلطات الانتداب في بداية  
صدورها بعد الحرب العالميّة الأولى، عادت ووقفت إلى جانب الحركة  
الوطنية في وجه سياسة الانتداب. ولقد عالجت الكرمّل القضية الفلسطينيّة  
طوال صدورها معالجة جاذة ومكثّفة أكسبت صاحبها وبحث اسم أب  
فلسطين وشيخ الصحافة الفلسطينيّة. ولقد نجح في إثارة الرأي العامّ ضدّ  
الهجرة والاستيطان اليهودي، ودبّج مئات المقالات لتوضيح حقوق  
الشعب الفلسطينيّ ومصير فلسطين الغارق في ضباية مزنة.

حمل نجيب نصّار أعباء القضية الفلسطينيّة منذ الحكم التركيّ،  
ونشرت الكرمّل سلسلة من المقالات تندّد بالهجرة اليهوديّة إلى فلسطين  
مما أثار الحكم التركيّ ضدّه بتحريض من الحاخامية اليهوديّة لدى الباب  
العالي. وكانت جريدة الكرمّل قد حدّدت لنفسها موقفًا متميّزًا من  
الأطراف المشاركة في الحرب العالميّة الأولى، إذ دعا نجيب نصّار إلى  
ضرورة عقد حلف صداقة مع أنجلترا وليس مع ألمانيا، وقد استند في ذلك

لأسباب أهمها، أنّ شطآن البلاد التي تحت سلطة تركيا سوف تكون عرضة لتصف سفن الأسطول البريطاني، ولذلك علينا تفادي ذلك وحماية مدتنا من احتمال التدمير. وكانت السياسة الألمانية قد قامت بدور في اجتذاب الرجل المريض إلى جانبها، ونصح نجيب نصار تركيا بالبقاء على الحياد، ولكن هذه الآراء كانت منافية لرغبات المسؤولين العسكريين الأتراك من جهة، والسفير الألماني في الأستانة من جهة أخرى. وحاول القنصل الألماني العام إقناع نصار بالكف عن الحملة التي شتها على الحلف الألماني العثماني، ولكنه أبى الدفاع عن سياسة تؤذي قومه في صميم مصالحهم، ولما باءت جهود المسؤولين من الأتراك والألمان بالفشل اتهموا نصار بالخيانة العظمى. فصدر الأمر باعتقاله العام ١٩١٥ ولكنه هرب بأعجوبة وبقي مشرداً بين قبائل البدو<sup>(١٢)</sup>. «وراح نصار يتنقل بالخفاء في بعض المدن والقرى الفلسطينية إلى أن أتيح له الوصول إلى شرق الأردن. فترل على صديق له أكرم وفادته وعرفه بعشيرته بقوله: تخاسم ضيفنا مع أهله فجاونا لبشيري فدّانين يعناش منهما. واستعان باسم مستعار اختاره لنفسه وهو الشيخ مفلح الفسّاني. ولما أعلنت الدولة العثمانية عن جائزة مالية لمن يرشد إليه أو يقبض عليه قرّر الفسّاني أن يسلم نفسه إلى السلطة العثمانية، بعد تغيّيه ثلاث سنوات، فسجته في السجن العرفي في دمشق، وهو سجن اشتهر بقسوة معاملة المسجونين فيه. حتى إن بالكاد كان يخرج المسجون منه حياً. وقُدّم إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظيمة إلاّ أنه بُرئ منها وأُفرج عنه بعد محاكمته بفترة قصيرة مع مئة سجين عربي»<sup>(١٣)</sup>.

ويلخص نجيب نصار سياسة الكرمل في العهد العثماني فيقول:  
«تحوّلت الصحيفة لعهدتنا، فكرّسناها لخدمة الشعب الذي ذلكته الحكومة الظالمة، والتي ما زال أنصارها يعملون على ضحيته، حتى صار يعتقد نفسه تمثالاً يحني ظميره صراعاً لأتتال الظلم. فالكرمل سنحتيد

(١٢) يعقوب المرادات: المرجع السابق، ص ٦٣٤.

(١٣) يعقوب المرادات: من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، ص ٦٣٥.

بشريفه نسبيته إلى حكومته ومركزه، في الهيئة الاجتماعية، ومستقل  
شكاويه من أعوان الاستبداد إلى مراجعها الرئيسية. ومن أجل هذه الغاية  
ترسل منها نسخ إلى جميع المراجع (الإيجابية) العالية في الأستانة والولاية  
والمتمصرفية والقدس وعكا وإلى جميع الجرائد المهمة... والكرمل  
ستتصر للشعب في كل المطالب العادلة ومتعاون وصيفاتها على بيان  
واجباته نحو الحكومة وواجبات كل فرد نحو الآخر... والكرمل لا تتحيز  
لفريق دون الآخر من العثمانيين، نستخدم التاجر والصانع والزارع وكل  
فئات الشعب على السواء. فنرجو منه إقبالا عليها ليوقف على مبادئها  
وبعضها مادة ومعنى، كي تتمكن من القيام بواجباتها نحوه...<sup>(١٤)</sup>.

وتوقفت الكرمل عن الصدور عند نشوب الحرب العالمية الأولى  
وعادت إليه بعد هذه الحرب يوم السبت ٧ شباط ١٩٢٠ وقالت إنها جريدة  
يومية تصدر مؤقتا مرتين في الأسبوع، وظلت تصدر إلى مطلع الحرب  
العالمية الثانية. وكانت في البداية أسبوعية ثم مرتين في الأسبوع ثم  
أصبحت صحيفة يومية باسم الكرمل الجديد إلى عام ١٩٣٧، وصدر العدد  
الأخير منها في آب سنة ١٩٤١. لقد قام نصر بتغطية صحفية ممتازة لما دار  
في انعائم العربي وفلسطين خاصة، وأسهب في شرح سائر الأمور في جميع  
الحقول الحياتية المختلفة. ولقد اشترك في جريدة الكرمل في السنوات  
الأولى من الانتداب البريطاني محمد عزت دروزه ويوسف الخطيب وخليل  
انسكاكيني وحسن صدقي الدجاني وسليمان التاجي الفاروقي وأسعد  
الشقيري وحسن عبد الهادي، ومجموعة من الأدباء والشخصيات العربية  
الذين قاموا في حياتهم بدور مهم في الحركة العربية. وشن على صفحاتها  
حملة جريئة تحث الشعب على الامتناع عن بيع الأراضي للمهاجرين  
اليهود، تلك الحملة التي امتدت على صفحات الكرمل حوالي خمسة  
وثلاثين عاما حتى توقفت هذه الصحيفة نهائيا. حتى إنه اشترى أرضا في  
يسان كيلا تباع إلى غير العرب. ولم تفتح هذه الجريدة أبوابها للمهاترات

(١٤) محمد سليمان: تاريخ الصحافة الفلسطينية، نقوسيا، منشورات مؤسسة يسان،  
١٩٨٧، ص ٧٨. وجريدة الكرمل العدد ١٥، ٢٧-٣-١٩٠٩.

الكلامية، ولم تلتزم بشكل أعمى بفتة ما، بل كانت بالمرصاد لكلّ توجه فرديّ أو جماعيّ. لقد حارب وناضل من أجل الأرض وبقاء الفلاح العربيّ في أرضه، وهو صاحب القول المشهور «مَنْ لا أرض له لا وطن له»، ومن أقواله أيضًا «إِنَّ الطائفية بذرة شريرة بذرها الاستعمار ليرتكز في سيادته عليها والتحكّم بمقدراتنا عملاً بسياسة «فَرَق تَسَد». فلنعبد الله أولاً ولنصلّ للوطن ثانيًا، فليس الأنبياء ولا القرآن ولا الإنجيل بحاجة إلى شجار باسم الدين، فالدين لله والوطن للجميع»<sup>(١٥)</sup>. وفي كتاباته رؤية عصريّة عقلانية لموضوع الوحدة الوطنيّة، فقد رأى أنّ الوطن الواحد واللغة الواحدة والتاريخ الواحد والمصير الواحد عوامل تجعل المسلمين والمسيحيّين في فلسطين أمة واحدة. ودعا إلى صهر ولاء كلّ الطوائف الدينيّة في الولاء الأكبر كما سمّاه، الولاء لفلسطين والعروبة. ولقد أبدع في تطوير الكتابة الصحفيّة القائمة على الالتزام والصدق والأمانة والصراحة في تقصي الحقائق، والاهتمام بكلّ مجالات الحياة.

ونشرت جريدة الوحدة التي كانت تصدر في القدس لصاحبها ورئيس تحريرها إسحق عبد السلام الحسيني كلمة بعنوان كيف نشأت جريدة الكرمل في حيفا، قالت فيها:

«أعلن الدستور العثمانيّ في العام ١٩٠٩ فخاير نصّار بعض الصحف المتشوّرة لينشر فيها مقالات متسلسلة عن الصهيونيّة، فنصحت بالتريث إلى أن تستقرّ الحال لأنّ زعماء يهود سلانيك كانوا لهم ضلع كبير في الانقلاب العثمانيّ. على رغم أنّ الأستاذ نصّار لم يكن يرغب في امتحان الصحافة فقد شعر أنّ الواجب يقضي عليه بتبنيه العرب إلى الخطر الذي يهدّد بلادهم وكيانهم، فاستصدر رخصة وأنشأ جريدة الكرمل في أواخر العام ١٩٠٩... استأنف صاحب الكرمل بعد الاحتلال البريطانيّ إصدارها بناء على إلحاح أصدقائه الكثيرين وثابر على خطّته وقام يدعو لتأليب الرأي العامّ العربيّ... وعلى رغم أنّ الكرمل تابعت سياسة موالاة الإنكليز إلاّ أنّها كانت تتند السياسة الإنكليزيّة المتبّعة في فلسطين وتخطّئها وتلفت

(١٥) بعقرب العرودات: م. س.

أنظار مديري الإدارة والسياسة إلى وفاء العرب، وإلى أن مساعدة العرب على تحقيق جامعتهم وبناء إمبراطوريتهم ضمن للبريطانيين حماية مصالحهم وطرقهم في الشرق. ولكنَّ حظَّ الكرمل من الإنكليز كان أسوأ من حظها من الأتراك، فقد أوقفوها ستّ مرّات ثمّ أوقفوها في العام ١٩٤٢ بموجب قانون الطوارئ»<sup>(١٦)</sup>.

وتصف جريدة مرآة الشرق الكرمل بقولها:

«كانت جريدة الكرمل نصف أسبوعيّة فأرهقتها ضريبة البريد وجعلتها أسبوعيّة، ولكنّها عوّضت القراء فصدرت في ١٢ صفحة، وهي تميل لتكون منجّلة أكثر منها جريدة. وهي أوّل من أشار إلى أخطار الصهيونيّة وإلى ما يرمي إليه اليهود من تأسيس حكومة في فلسطين وإعادة ملك إسرائيل. ولا أكتم القراء بأنّي لمّا قرأت تلك الإرهاصات قلت إنّ الكاتب جنّ أو خرف، فكيف يخشى أن ينهب اليهود قسماً من البلاد العربيّة يحيط به العالم العربيّ من أطرافه الثلاثة. ولكن دارت الأيام دورتها فسمعنا تصريح بلفور، ورأيت بعيني وتحققت جميع ما نبّهت إليه الكرمل سابقاً. هي أشدّ أعداء الصهيونيّة تحاربها بكلّ ما أوتيت من معرفة وقوّة، تفرح لنكبتهم وتغضب لنشاطهم ولا تفر من مخاصمتهم وإن شطت أحياناً عن طرق الدفاع فإنّها لم تخطن المرمى. نزعتها عربيّة إسلاميّة تقاوم سياسة الحكومة ومحاباتها للصهيونيين، ولا تشدّد في حملاتها على الإنجليز ومشروعيّة وجودهم، بل تفضّل موالاتهم. ملحاحه إذا انتقدت شيئاً كرّره مراراً حتّى يضجر الناس. لها مبدأ تتمي إليه فمّن خرج عنه خاصته ومّن سار عليه وافته، وتدعي أنّها مصيبة لمّا كانت مع اللجنة التنفيذية وبيت الزعامة والمجلس الإسلامي، وهي صادقة في محاربتها هؤلاء الجماعة لأنّها ابتلتهم فخبّروا ظلّها وأملها»<sup>(١٧)</sup>.

ولم يكن نجيب نصّار أحسن من غيره من الفلسطينيين الذين بذلوا وضخوا في سبيل شعبهم، فلقد أصدرت سلطات الانتداب البريطانيّ

(١٦) جريدة الوحلة، ٢٣ شباط ١٩٤٦، العدد ٣٨.

(١٧) جريدة مرآة الشرق، ١٠ آذار ١٩٢٧، العدد ٤٩٧.

أوامرها بإغلاق صحيفته عدّة مرّات، ولكنّها عادت إلى الصدور وهي أقوى وأشدّ بأسًا. ووقفت إلى جانب نجيب نصّار زوجته ساذج ابنة الشيخ بديع الله بهائي العكيّة وكان زواجه الثاني بها، فكانت الزوجة والمحرّرة. وكانت زوجته شريكة له في المعاناة وفي شرف النضال القوميّ، وكانت أوّل سيّدة مثقّفة فلسطينيّة تدخل سجون سلطات الانتداب البريطانيّ. وقد كتب لها زوجها رسالة لطيفة قال فيها إذا لم أدخل التاريخ بفضل الكرمل فسوف أدخله بفضل زوجتي التي هي أوّل سيّدة فلسطينيّة تدخل زنازين الاحتلال دفاعًا عن فلسطين. وكتابات نصّار تركيز خاصّ على حرّيّة المرأة. وكانت زوجته الأولى لبنانيّة الأصل من الشوفيات وولد منها الأبناء شفيق وأديب وشوقي وسعاد زوجة حبيب رهبة ابن الناصرة. وشاركت ساذج نصّار زوجها في تحرير الصحيفة وإعدادها، وبذلك كانت من أوائل النساء اللواتي عملن في ميدان الصحافة النسائيّة في فلسطين، فقد حرّرت صفحة خاصّة بالمرأة في جريدة الكرمل، في حين عرفت الصحف الفلسطينيّة العديد من الكاتبات اللواتي يكتبن في الصحافة ولا يعملن فيها، ونذكر منهنّ أسمى طوبى وسميرة عزّام وماري شحادة. وكانت السيّدة نصّار كاتبة وصحافيّة، وقد كانت الأكثر بين أترابها اقترابًا من الصحافة، وأنها بهذه المشاركة قد سجّلت دورًا للمرأة في الحركة الصحافيّة الفلسطينيّة في العهد التركيّ، وذلك لأنّه لم يكن في فلسطين، ومنذ نشأت الصحافة فيها، نساء عملن في هذه المهنة، في أيّ فرع من فروعها خلال تلك الفترة.

### موضوعات الجريدة

وكان نصّار في نشاطه الفكريّ والصحفيّ يهدف إلى كشف الحقيقة وأهداف الحركة الصهيونيّة السياسيّة والاستيطانيّة، وكشف الآثار المدمرة اقتصاديًّا ومعيشيًّا لعملية بيع الأراضي وانتقالها من العرب إلى الوكالة اليهوديّة، إضافة إلى إدانة الشخصيات العربيّة والفلسطينيّة التي باعت الأراضي وحثّ المزارعين الفلسطينيين على تطوير الزراعة وعصرنتها.

ولقد قسّم نصّار جريدته إلى أبواب ثابتة منها الافتتاحية، والموقف السياسي، والموقف الاقتصادي، ومحلّيات، والزراعة، وأبناء بلاد العرب، وزاوية المرأة. كما اهتمّت الكرمل بأحوال التّجار والمثقفين ودعا إلى إقامة روابط المعلّمين والمحامين والأطباء والكتّاب والصحافيين. وفي كتاباته دعوة العرب إلى المثابرة على النهضة العلميّة لتطوير الزراعة وإقامة الصناعات وترقية الاقتصاد والتخطيط وبناء المناعة القوميّة الذاتيّة. كانت سياسة الجريدة الدّفاع عن مطالب الشعب العادلة وبيان واجباته نحو الحكومة، والدّفاع عن حقوق العمّال ومبادئ الحرّيّة. وفي ما يلي نماذج من كتابات نجيب نصّار في هذه الموضوعات:

### تصفية الحساب

«جدير بنا بعد عمل سبع أو ثمانين سنين أن نعيد النظر في حسابنا، نجري تصفية ما قمنا به من الأعمال الوطنيّة لنعرف ماذا ربحنا وماذا خسرنا، ولننظّم حركاتنا في المستقبل تنظيمًا يقينا خطر الخسارة ويؤمن لنا الربح. بعد أعمال متواصلة قام بها الوطنيّون منذ الاحتلال إلى اليوم، كانت النتيجة أنّ الحركة الصهيونيّة أفلحت في إدخال أكثر من مئة ألف مهاجر البلاد، ونجحت في شراء أكثر من مليون دونم من الأراضي، وجعلت لغتها العبريّة لغة رسميّة وقبضت على معظم الموارد التجاريّة. أمّا نحن فقد نجحنا في تأليف المجلس الإسلاميّ الأعلى وتأمين خمس كراسٍ للرئيس والأعضاء لتتنازع وتخاصم عليها مثل أعداء يتنازعون على محافظة كيانهم وسلامة أوطانهم»<sup>(١٨)</sup>.

### انتخابات البلديات

«إنقسمنا بعضنا على بعض في انتخابات البلديات انقسامًا أذى إلى إجلاس بضعة ذرات على كراسيّ البلديات والى ترك حركتيّ الاستعمار الصهيونيّ والاستعمار البريطانيّ تعملان في البلاد من دون منازع أو رقيب. ظهر ممّا قمنا به من الأعمال أنّنا عبيد منافع وطلّاب كراسيّ

(١٨) جريدة الكرمل، ١٩ حزيران ١٩٢٧.

ورراتب، لا خدمة أوطان وحماة مصالح عامة، فلذلك كانت كل تجارتنا الوطنية خاسرة»<sup>(١٩)</sup>.

### الصهيونيون وفلسطين

يكتب جابوتسكي ونشر التيمس «أن اليهود لا ينوون أن يحلّوا محلّ العرب الذين يقطنون في الأراضي الزراعية بمتوسط ٧٥ نَفْسًا للميل المربع إلخ». نحن نرغب في أن نصدّق هذه الأقوال ولكن ما كنّا نراه قبل الحرب من المعاي التي كان يبذلها الصهيونيون لعزل أهل كلّ قرية كانوا يشترونها ليقوموا مقامهم [بغني ذلك]، مع أنّ الصهيونيين كانوا في ذلك الوقت يشترون مقاصدهم بدعوى أنّهم لا يطلبون سوى ملاجئ للمضطهدين، وأنهم يريدون أن يقيموا ضيوفًا على العرب الكرام، ويرغبون في أن يستظلّوا بالهلال. وما رأيناه على أثر الاحتلال من مظاهرات المتطرفين وما نراه من القوانين كقانون انتقال الأراضي الذي يكاد يحصر بيعها بالصهيونيين، والإخطارات التي بدأ وكلاء الصهيونيين يخطرون بها الأهل في القرى التي استأجروها من نجيب سرسق يجعلنا لا نطمئن إلى مثل مخدّرات الخواجا جابوتسكي. كنانا بالوطن القومي إنذارًا بصيرنا - الوعد الذي لولاه لاستطعنا أن نوجد لفلسطين من مياجري السويين المتعلمين والتموليين الموجودين في أميركا عددًا يكفي لاستعمارها واستثمارها. عجبًا كيف يريد اليهود أن يوجدوا لأنفسهم وطنًا في فلسطين، ويؤسّسوا ملكًا في مقاطعة صغيرة فقيرة، لا تأوي أكثر من مليون نسمة ويفخروا على ثلثي المليون من أهلها فيها وهم يريدون أن يجلبوا إليها ملايين انصبيونيين.

### لا عسلك ولا إبرك

هكذا يقول للنحلّ اللذين يتخاقون من إيره - بمنّ الخواجا جابوتسكي بالملايين التي سيأتي بنا اليهود لإعمار فلسطين، نحن نرغب في أن تبقى ملايينهم لهم وتبقى بلادنا لنا - لو كان المقصود بالمال الذي

(١٩) جريدة الكرمل.

سيجلبه اليهود إلى فلسطين نفع الوطنيين كما يزعم جابوتسكي، لما رأينا مال النافعة يجبي من الأهالي والأفضلية في العمل تُمنح لمهاجري اليهود، وما رأينا الحكومة القائمة بمال الأهالي تعطي اليهود الأفضلية في الوظائف، ولما رأينا قانون انتقال الأراضي ومنع التصدير يحدّد علينا التصرف في حاصلاتنا وأراضينا، وافتحت البلاد للشركات المختلفة، وفكّلت قيود البيع والشراء والمهاجرة، وما بوشر بتأليف حكومة يهودية منذ اليوم وقبل مصادقة جمعية الأمم. ثم تقول التيمس من عندياتها (ما نقله عن المقطم): «وإذا ضربنا صفحاً عما لنا من المصلحة الأدبية بنجاح الصهيونيين فإنّ مصلحتنا المباشرة في فلسطين تقضي علينا بأن نخفّف أحمالنا. منها بقدر الطاقة». ترى ما هي مصلحة التاييمز الأدبية بنجاح الصهيونيين في فلسطين؟ أهي القضاء على ما كان للعرب من الآمال ببريطانيا؟ طالما أردنا أن نحسن الظنّ بالتيمس والتمسنا الأعذار لكلّ الذين يقولون بالوطن القوميّ لغيرنا في بلادنا، ولكن يظهر أنّ التيمس لا تريد أن تخفي من الحقيقة شيئاً. ترى ما هي الأعباء التي يحملها العرب للبريطانيين في فلسطين، حتّى لا ترى التيمس سبيلاً لتحقيقها إلاّ بتحقيق آمال الصهيونيين؟

إنّ العرب في فلسطين لا يريدون أن يكونوا عبئاً ثقيلاً على بريطانيا ولا يريدون أن يحملوها شيئاً من النفقات المادية أو البعثاء، أمّا إذا كانت المصلحة البريطانية تستدعي أن يكون لبريطانيا نفوذ على فلسطين، فالأهالي يرضون بذلك إرضاء لبريطانيا، على شرط عدم العمل بوعدهم بلقوز، ومنح البلاد حكومة وطنية. ونحن على يقين أنّ زعماء العرب في فلسطين يتعهدون بجميع نفقات حكومتهم ويحفظ الأمن في بلادهم بواسطة الجند الوطنيّ وبالمحافظة على جميع المصالح البريطانية، ويقدمون لبريطانيا رهائن على ذلك إن شاءت.

تقول التيمس: «إنّ كلّ ما تنازل فرنسا عنه لفلسطين لا تنازل عنه له الأميرالزم» البريطانية، بل للسياسة التي صارت بعد مؤتمر سان ريمو سياسة فرنسا كما هي سياسة بريطانيا، وهي إنشاء أمة فلسطينية تتمكّن في

آخر الأمر من أن تطعم نفسها وتحمي نفسها بنفسها». خير لفرنسا ولنا أن نتنازل عن حقوقنا له<sup>١</sup> الأمبريالزم<sup>٢</sup> البريطانية، من أن تجعل التامس بريطانيا وفرنسا آلة لتزيع بلاد من أصحابها ومنحها لأمة لا حق لها فيها. إذا كانت التامس مدفوعة لهذا القول بعوامل إنسانية فالإنسانية يجب ألا تسيها أن في فلسطين أمة عربية لم تسي إلى السياسة البريطانية.

إن اهتمام التامس بإنشاء أمة يهودية في بلاد عربية مأهولة، لا يكون له صدى مستحب في البلدان العربية التي لبريطانيا مصالح كبرى فيها، وإذا كانت التامس تحسب أن العرب كمية مهمة، فالعرب سائرون كسائر الأمم في سبيل التكوّن ولا ريب، أنهم يميّزون بين الحسنة والسئنة، فإذا السياسة البريطانية اتبعت رأي التامس فهي تؤلم العرب، وإذا فرنسا حافظت على أقسام البلاد التي تحت وصايتها لأهلها، فإن ذلك يترجم بلا ريب امتنانهم. وعلى كل أننا نتبه زعماءنا العرب الكبار والصغار، وكل متورّ وعاقل ومخلص، إلى وجوب مضاعفة المساعي لتأليف الوحدة العربية، فهي وحدها تصون الحقوق العنصرية العائمة، وتجعل الصحف الأوروبية تفكر قبلما تكتب، وتنبه كبار السياسيين إلى المنافع التي تنالها بلدانهم من موالاته العرب وعدم التعمّدي عليهم.

وفي الختام نوجه أنظار التامس إلى أن السياسة البريطانية بحاجة إلى تكثير الأصدقاء وتقليل الأعداء، وأن بريطانيا تحسن عملاً لتجربة صداقة العرب. ولو حذت التامس وغيرها من أمهات الصحف البريطانية حذو المورنن بوست لوجدت بلا ريب لبريطانيا من العرب أصدقاء لا شك في أننا لا نخسر بصداقتهم، ولا سيما في هذا الزمن الذي كثر فيه المتفضون على السياسة البريطانية، ممّا يزلّم أصدقاء بريطانيا. ولا نكتم التامس أن أتباعها السياسة اليهودية ومجاهرتها بلزوم عدم الاعتداد في الدوائر السياسية بأحلام العرب بالوحدة، صار يجعلنا نرتاب من نيتنا لجهة العرب<sup>(٢٠)</sup>.

(٢٠) جريدة الكومل، ٩ كانون الأول ١٩٢٠.